العمالة وصناعة النجوم! (*)

أصيب الرأى العام، فى مصر والعالم العربى بعامة، بصدمة هائلة حين تسربت أنباء من كانوا يقبضون فى الكواليس من صدام حسين!! زادت الصدمة غورا - ليس فقط بسبب اتساع المساحة الجغرافية التى غزت فيها أموال صدام هذه الشخصيات وكادت تشمل كل أقطار الوطن العربى، وإنما للحجم الكبير الذى ظنه الناس لكثير من هذه الشخوص التى اعتقدوا أنها تجسد البطولة، ورسموا لها فى خيالهم صورا سامقة شامخة، تعلق بها البسطاء وربما غير البسطاء، وتوهموها الأمل وقاطرة العرب أوطانا وشعوبا فى هذا الزمن الكسيح، ثم إذ بهم يُفجأون بأنهم "عملاء" حتى النخاع، وأن صورة البطولة الزاعقة والنجومية الجاذبة لم تكن إلاّ ستاراً تتحرك من ورائه دمى تجرعت "العمالة" حتى الثمالة، تبذل نفسها وخدماتها لمن يدفع، وتنحدر فيما تبذله إلى القاع، وتتمنطق أمام الناس بأثواب البطولة التى يصرفون بها الأنظار عما يجرى فى التحوت والأسافل!!

شملت القوائم المتسربة زعماءً وأبناء زعماء، ورؤساء ونواب رؤساء أحزاب، وبرلمانيين ونقباء، ورجال أعمال وفنانين وفنانات - لبسوا أثوابا كبيرة وبدوا للناس أشاوس يتقدمون الصفوف لقيادة الهوان العربى نحو الخلاص المنشود!! يزداد استسلام الناس للصورة الكاذبة التى يبثونها إليهم كلما اتسعت نجوميتهم وامتدت طولا وعرضا، وسيطر بهرها على البصائر فلم تعد ترى، وعلى العقول فلم تعد

---

* ٢٠٠٤/١٠/١٠

تفهم، حتى تبعثر الانسان العربى بين ضغوط القوى العظمى، ووطأة الاحتلال العسكرى والاستعمار الاقتصادى، وبين أنظمة جاثمة، ثم نجوم زائفين هم فى الواقع عملاء فى الخفاء لهؤلاء أو أولاء، يصرفون البسطاء عن حقيقة ما يجرى وراء الستار ويشدون أنظار المخدوعين إلى حيث يراد للناس أن ينظروا ابتعاداً بهم عما يجب أن يروه ويتأملوه ويعوا ما فيه!!

لم تخجلهم فضيحة الجعول التى انفجرت بعد أن أميط عنها اللثام، فلم يجدوا غضاضة فى مزيد من التبجح يسددون به بعض الفواتير المدفوعة إليهم مقدما، ويدرأون فى الوقت نفسه - بخطة وأسلوب السداد! - وصمة "العمالة" التى عرتهم أمام شعوبهم!! أخذوا يستغلون بخبث غضب الأمة العربية للهوان العربى الذى جسده غزو واحتلال العراق والقبض المهين على رئيسه، ليخلطوا خلطاً خبيثا بين صدام والعراق، وشتان بينهما!!.. العراق هو حبة القلب لكل عربى. بينما صدام الطاغية الذى جرع العراق وشعب العراق، وأشعل حرب مجنونة أهلكت الحرث والنسل مع إيران الإسلامية - أتبعها - لمدارا: الخيبة والهلاك الذى بثه - بغزو مجنون آخر لقطر عربى شقيق أشعل بآبار بتروله النار والتى ظلت مشتعلة لسنوات!!، وأحدث فلقا فى الجدار العربى لا تزال تداعياته جارية بعوادمها إلى الآن.

نعم حزن الناس واكتأبوا للقبض والأسر المهين ولكن ليس لشخص صدام الذى بغى وتجبر، وإنما إلى ما يرمز إليه الحدث عن السقوط العربى الذى كان صدام نفسه أحد معاوله!.. لا يريد "النجوم" "العملاء" أن تتكشف أبعاد المستور الذى افتضح، فتتتابع ايقاعاتهم فى إلحاح وقح للدفاع عن صدام وتجميل صورته - أو بالأحرى مداراة بشاعة عمالتهم!!.. بينما تتسرب الأنباء عن مبالغ أخرى تدفع من أسرة صدام إلى "النجوم" الذين يتقدمون لاستعارة أدوار البطولة للدفاع عن "الطاغية" المتجنى عليه!! ولا تتحرج - صحيفة

كبرى من أن تفرد لواحد من هؤلاء عمبوداً يلغو ويهرج فيه ويتحدث إلى رئيس التحرير عن البطولة المرتقبة التى سيتولاها لقيادة الدفاع عن صدام - كيف؟! - ليس هذا هو المهم، وإنما أن يجد هذا "التهريج" سبيله إلى جماهير البسطاء آملاً أن يكون الناس فى بلادنا قد نسوا أفاعيل صدام للإساءة إلى مصر والنيل منها تبريكا للزعامة التى كان ينشدها صدام بإزاحة مصر وبدم الشعوب وجثث الضحايا والأبرياء!!

العمالة لعبة تمارسها الأنظمة، وتمارسها الدول - تختلط أحيانا بالجاسوسية والتخابر، وتتخفى أحيانا فى صور براقة مصنوعة تساعد على دفع الرياح إلى الاتجاه المرسوم.. أخطر أنواع العمالة خداعا للناس والشعوب، تلك التى يضطلع بها نجوم خرجوا قصداً من معامل ومصانع النجومية.. فالنجومية والنجوم، ليسا فى كل الأحوال طرحاً تلقائياً، وإنما تداخله أحيانا، بقدر كثير أو قليل، صناعة مقصودة، قد تحسن نواياها، وقد تمضى بها مآرب إلى بعيد بعيد لا يظهر فى الأفق لمعظم الناس وربما للمراقبين والمتابعين من أهل الفكر والنظر!!

وقد لا يبالى الناس بصناعة النجوم، ولا بأس فى ذلك ولا تثريب حين تستهدف النجومية المصنوعة - ترويج الفنون أو اللعبات الرياضية أو جلب الجماهير أو الترويج للشركات السينمائية التى كانت تتبارى لصناعة "نجومية" للممثلين والمخرجين والفنيين الذين تحتكرهم.. ولا بأس ولا تثريب فى عدم الانتباه أو الالتفات إذا كانت صناعة النجم مستقيمة النوايا والمقاصد.. وكثيرا ما تصادف الصناعة فى مثل هذه الحالات "مقومات" حقيقية لا تفعل "الصناعة" إلاّ صقلها وإبرازها وتقديمها وترويجها وإضافة "رتوش الصورة" المطلوبة إليها.. بيد أن الخطر يأتى حين تمارس هذه الصناعة فى لعبة الدول، لاختلاق نجوم محليين تعدهم القوى الغالبة - كالاستعمار أو

الاحتلال أو الاستيطان أو الهيمنة - للقيام بأدوار مرسومة وإحداث تأثيرات مطلوبة قد يبتعد زمان تحقيقها فتزداد الحجب التى تغطى على هذه الصناعة كثافة، فتمضى صناعة النجم إلى مآربها وغايتها، وتخيل على الناس الأدوار المعدة التى يقوم بها النجوم، دون أن يدرك البسطاء القوى الخفية التى تدفع صورة هؤلاء لأعلى، وربما انخدع ذات النجوم المصنوعين باستسلامهم المخدور النابع من ميل الفطرة البشرية إلى العظمة والصدارة والقيمة والصيت والوجاهة - إلى غير ذلك مما يصاحب تشكّل النجومية - الطبيعية أو المصطنعة - من استسلام إنسانى للتيه والزهو، وانصراف بهما - قليل أو كثير - عن تأمل الأشياء وسبر الأغوار والبحث عن الجذور الراقدة فى الأعماق!

لا أريد بهذه الكلمات أن أزيد صدمة الناس، ولا أن أعرى نجوماً صنعتهم "العمالة" والقوى المدبرة المديرة لها، وإنما أريد فقط أن أدعو العقل العربى للتيقظ والانتباه إلى ما يجرى فى الزحام، فلا تخدعه الأصوات الزاعقة فى كل الأحوال، ولا يستهين بالوقار، أو يسحب الإخلاص عن الحكماء الجادين.. فكم تتخفى "العمالة" وراء الصرخات العنترية، وكم بذل حكماء من أرواحهم وعصير حياتهم لأممهم فى إخلاص نادر وجد ووقار، لا يتصدرون الصور، ولا يصطنعون الأمجاد، ولا يعرضون أنفسهم أو أعمالهم على الناس.. إن غاندى قد أقام الهند بغير صراخ، وأقض ببساطة نادرة مضاجع الإمبراطورية البريطانية.. الخطر أن ينخدع الناس عن الجد الوقور، وأن يجروا وراء الصرخات العنترية وتهاويم النجومية المصنوعة والبطولة الزائفة، فتتبهم الحقائق، وتضل البوصلة، ويمضى العرب فى تيه طويل لا يرون فيه بصيصا حقيقيا يمسكون به وسط الظلام الذى تمرح فيه الخفافيش وتصادر الألباب والأفهام!